

التغيير

عناصر الموضوع

٢٣٤	مفهوم التغيير
٢٣٥	التغيير في الاستعمال القرآني
٢٣٦	الألفاظ ذات الصلة
٢٣٨	التغيير المسند لله تعالى
٢٤٣	أنواع التغيير
٢٥٥	أسباب التغيير
٢٧١	مجالات التغيير
٢٧٥	ثمرات التغيير وآثاره

مفهوم التغيير

المعنى اللغوي والاصطلاحي.

أولاً: المعنى اللغوي: مصدر غير، والمضارع منه يغير، وهو فعل متعدٍ. والتغير مصدر من تغير، وهو فعلٌ لازمٌ، والمضارع منه يتغير. جاء في اللسان: «وتغير الشيء عن حاله تحول، وغيره حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعْتَرَا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأفصال: ٥٣]. قال ثعلب: معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله....» «والغير: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد، والغير: الاسم من قولك: غيرت الشيء فتغير»^(١). وورد في السنة النبوية: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).^(٢)

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن نطاق المعنى اللغوي بل يطابقه، قال أبو البقاء: والتغيير: عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى، مثل: تغيير الأحمر إلى الأبيض. والتغيير إما في ذات الشيء أو جزئه أو الخارج عنه. ومن الأول: تغيير الليل والنهار، ومن الثاني: تغيير العناصر بتبديل صورها، ومن الثالث: تغيير الأفلاك بتبديل أوضاعها. والتحويل يتعدى ويلزم، والتغيير لا يكون إلا متعدياً.^(٣)

وقال الراغب: «والتغيير تبديل شيء بما يضاذه، فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال: غيرت داري، ويكون تغيير حال وصفة، ومنه تغيير الشيب، أي: صباغه، وكأنه مشتق من الغير، وهو المخالف.^(٤) وفرق الجرجاني بين التغيير والتغير، فقال: التغيير: هو إحداث شيء لم يكن قبله، والتغير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى.^(٥)

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥ / ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١ / ٥٠، رقم ٤٩.

(٣) الكلبيات، الكفوي ص ٤٥١.

(٤) المفردات ص ٦١٩.

(٥) التعريفات ص ٨٧.

التغيير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غير) في القرآن الكريم (٦) مرات فقط ^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]
اسم فاعل	١٥	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الأنفال: ٥٣]

وجاءت صيغ (غير) -المضعف- في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: التحويل والتبديل ^(٢).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الأنفال: ٥٣]. معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٠٧-٥٠٨.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٤ / ٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح لغة:

خلاف الإفساد^(١).

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال^(٢).وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»^(٣).

الصلة بين التغيير والإصلاح

التغيير قد يكون للحسن وقد يكون للسيء، أما الإصلاح فلا يكون إلا من فسادٍ أو خلل فهو تغيير للخير وللأحسن. والإصلاح يشمل التغيير للأحسن بوجه عام أو الإصلاح بين متخاصمين.

٢ التبديل:

التبديل لغة:

تبديل الشيء تغييره وإن لم تأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه والمبادلة التبادل^(٤).

والتبديل: التغيير والعين قائمة. ويقال: بدّل وبدلّ وبديل. والإبدال: أن تأتي بالبدل^(٥).

التبديل اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو: تغيير الشيء عن حاله.

الصلة بين التغيير والتبديل

قال أبو حيان: «التغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللت وأضعفت»^(٦).

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ٤ / ١٤٢.

(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص ٥١.

(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١ / ٢١٥.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ١١ / ٤٨.

(٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٩ / ٣١٨.

(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٣ / ٥٠٧.

قال الفراء: التبديل تغيير الشيء عن حاله، والإبدال جعل الشيء مكان الشيء^(١). وجاء في لسان العرب: «والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر»^(٢)، وقيل: هما بمعنى. التغيير في الأشياء يقع مع بقاء أصلها، وفي الأحوال تقلبها وتبدلها إلى أحوال أخرى، ولكن تبديل الأشياء يستلزم تحويلها إلى غيرها.

٣ الإفساد:

الإفساد لغة:

هو ضد الإصلاح^(٣).

الإفساد اصطلاحًا:

هو جعل الشيء فاسدًا خارجًا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعًا به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح^(٤).

الصلة بين التغيير والإفساد:

الفساد من أسباب التغيير، فالتغيير قد يكون للأصلح، وقد يكون للفساد أو للأفسد.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ١ / ١١٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١ / ٤٨.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ٢ / ١٣.

(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٤.

التغيير المسند لله تعالى

التغيير سنة من سنن الله في الكون، وسنة اجتماعية نلمسها في عالمتنا، وكل تغيير يطرأ على هذا الكون إنما هو بإرادة الله تعالى وتدبيره .

أولاً: التغيير سنة كونية:

التغيير سنة من سنن هذا الكون، كما أن الثبات من سنته، إذ تدل حركة الأجرام العلوية على ثبات ودقة وانتظام، فالشمس لا تتخلف عن مواعدها طرفة عين، والقمر له دورته الثابتة لا يتخلف عنها، ومنازله فلا يبرح فلكه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، والنجوم تتراءى في مواقعها وكأنها ثابتة، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]

سنة مطردة في هذا الكون كما أن الثبات سنة مطردة، تشرق الشمس في الصباح فتملأ الدنيا نوراً ودفئاً، ثم تغرب في المساء فيحل الظلام، والليل والنهار يتعاقبان، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحْوَرَاتٍ مَّا أَتَى اللَّيْلُ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْتُهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]، وفصول السنة متتابعة، لا ينتهي فصلٌ إلا ويسلم لفصل، فهذا فصلٌ باردٌ ممطرٌ وذاك معتدلٌ

تهب فيه الرياح، فتثير الغبار وتلقح الأزهار، وتذوب الثلوج، وتنحدر من المرتفعات وتكسو الخضرة البراري والقفار وتجري الجداول في الحقول والبساتين، وهذا فصل الصيف حارٌ رطبٌ أو جاف، تورف فيه الظلال وتنضج الثمار، وذاك فصل الخريف يابس معتدل، تتساقط فيه الأوراق وتجف الفواكه والحبوب، في تنوع رائع، ولولا هذا التغيير لما استقامت الحياة ولما تحققت المنافع للإنسان .

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٦٦] ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١٧] [آل عمران: ٢٦-٢٧]

قال الشيخ رشيد رضا: «أي: إنك بحكمتك في تدير الأرض وتكوبرها وجعل الشمس بحسبانٍ تزيد في أحد الجديدين ما يكون سبباً لنقص الآخر، فلا ينكر على قدرتك وحكمتك أن تؤتي النبوة والمُلك من تشاء كمحمد وأمه، وتزرعها ممن تشاء كبنِي إسرائيل، فإنك تتصرف في شئون الناس كما تتصرف في الليل والنهار»^(١).

وفي عالم النبات نرى صوراً ومشاهد

(١) المنار، رشيد رضا ٣/ ٢٢٦.

فقد يصير المغلوب غالبًا، ويصير ذلك الغالب مغلوبًا، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده، وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلاً بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حيناً بعد أن كان أمرها على العكس حيناً آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي.

ويقول سيد قطب -رحمه الله- عن المناسبة بين الآيتين: والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكررة حتى لا يمر الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهي تطوي الليل من جانب وتشر النهار من جانب في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان، إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين، فهي سنة كونية، تلك السنة يمر عليها الناس غافلين، كما يمرون على دلائل القدرة في

للتغيير التدريجي، تبدأ النبتة ضعيفة لينة، ثم تشتد وتمتد أعضانها، ثم تزهر وتثمر، ويصفر النبات ويذبل ويجف في دورة عجيبة، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

والتغير الكوني يقابله تغير في حياة البشر بتقلب الأحوال وتبدل الزمان وتداول الأمم، تأمل في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٠-٦٣]، فنجد الترابط بين السنن الاجتماعية الإنسانية: سنة النصر والتمكين وبين السنن المادية الكونية سنة تعاقب الليل والنهار وتداخلهما يطول هذا ويقصر هذا في اختلاف عجيب.

قال صاحب التحرير والتنوير: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بغي عليه فصر، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان؛

سَوْءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ^١ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ

﴿١١﴾

لما ذكر تعالى استعجال كفار قريش للعذاب وحلول النقم على ما هم عليه من إمهالٍ ونعمٍ وخفض عيشٍ، بين تعالى أن من سنته العادلة أن لا يغير ما بقوم من عيش رغيدٍ وأمنٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر والعصيان والتمرد والجحود، وفي هذا وعيدٌ لكفار قريش، وقد حل بهم أمر الله، كما في غزوة بدرٍ حيث قتل صناديدهم وأسروا أكبرهم.

قال الرازي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ «كلام جميع المفسرين يدل أن المراد: لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام»^(٣).

ولكن يستفاد بمفهوم المخالفة أن الله لا يغير ما بقوم من سوء أو بلاء إلا إذا غيروا ما بأنفسهم فاستحقوا رفع البلاء وتبدل الحال السيئة إلى حالة حسنة.

٢. التغيير حقيقة ماثلة.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نَقْمَةً أَنْفَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأسند التغيير لله تعالى بصيغة اسم الفاعل (مغير). وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة بدر، حيث هزمت قريش، وقتل سبعون أغلبهم

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣١.

صفحة الكون وهم لا يشعرون^(١).

إن كل شيء في حياتنا عرضةً للتغيير المستمر وعلى الدوام، فكل يوم في حياتنا هو يوم جديد، وكل لحظة تمثل حدثًا مستجدًا في العمر، وعلى حد تعبير الفيلسوف اليوناني - قليطس - فإن المرء لا يستحم في النهر مرتين، لأن النهر يتغير بجريان الماء فيه، مثلما يتغير الشخص فور إحساسه أو ملامسته لماء النهر، ورغم دقة هذه الملاحظة وصدقها الواقعي فإننا نميل في العادة إلى إسباغ طابع الثبات والديمومة، ولو لفترات محددة على أنفسنا وعلى ما حولنا، ورغم ما يحدث من وجوه التغيير سواء كانت طفيفة أو كبيرة، فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلًا ثابتًا. وأن للإنسان ولشخصيته ملامح تبقى على حالها دون تغيير^(٢).

وتلك سمة الكون والإنسان: الجمع بين التغيير والثبات.

ثانيًا: التغيير سنة اجتماعية:

١. الإنذار بالتغيير.

قال تعالى ﴿لَهُمُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ لَهُمُ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٤١.

(٢) علم الاجتماع، أنطوني جيننز، ترجمة فايز الصباغ ص ١٠٥.

عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين^(٣).

مقارنة بين الآيتين:

❖ الآية الأولى من سورة الرعد مكية نزلت وقريش في عنفوان غرورها وأوج قوتها، وهي تستعجل العذاب تهكما وسخرية وعنادًا واستبعادًا، فكانت وعيدًا لهم، وإنذارًا مبكرًا لهم يرجعون عن مكابرتهم وجحودهم، بينما الآية الثانية من سورة الأنفال مدنية، نزلت إثر غزوة بدرٍ حيث تمرغت أنوف صنديد الكفر في رمال بدرٍ، وقصم الله رؤوس الشرك وجبايرة الطغيان، كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم من الجبايرة المكابرين، وقرن الله حالهم بحال قوم فرعون

من رؤوس الكفر، فبدل الله حالهم من عزة ومنعة، إلى قتلٍ وأسرٍ وخزي، فكان شأنهم كشأن آل فرعون الذين عاقبهم الله تعالى أشد العقاب بكفرهم وتكذيبهم، قال الطبري: «إن الله لا يغير ما بقوم من عافية، ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حيثئذ عقوبته وتغييره»^(١).

وقد استحقت قريش العقوبة بتبدل حالهم وهزيمتهم ومقتل صناديدهم في غزوة بدر لما بدلوا نعمة الله كفرًا، حيث اضطهدوا النبي ومن آمن معه وأخرجوهم من ديارهم فغير الله حالهم.

وقال أبو حيان: «وظاهر النعمة أنه يراد بها ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزة والأمن والخصب وكثرة الأولاد، والتغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللت وأضعفت ... والظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر، ويرى وفاجر، وأنه تعالى متى أنعم على أحد فلم يشكر، بدله عنها بالنعمة»^(٢).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن تمام

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/١٣.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥٠٧/٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٨/٤.

العصور. الأولى: بيان لكونها ثابتة جارية، والثانية: بيان لكونها واقعة ماضية .

❁ في آية الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمفعول التغيير في الأولى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: الذي بهم، حالهم، والثاني النعمة، يعني: تبديلها لنعمة ومحنة .

❁ التغيير في الآيتين من الله تعالى فالذي يغير هو الله تعالى .

❁ سبب التغيير في الآيتين هو تغيير ما بالأنفس، فالتغيير من جهة الله تعالى مقرون بالتغيير من جهة الأنفس، لا من جهة خارجه عنها، فلن يحاسب الإنسان على أخطاء غيره ما لم يرتضها أو يسكت عنها، والتغيير الإيجابي لا بد أن ينبع من النفس لا من الغير .

الذين طغوا وبغوا واتبعوا أمر فرعون، فساقهم إلى الهلاك والبوار . وتلك سنة الله تعالى في التغيير، تدل على عدله تعالى وحكمته .

❁ التغيير سنة من سنن الله تعالى، وقد اقترن في آية الرعد بسنن الله الكونية والإنسانية وآياته الملموسة، وفي سورة الأنفال ارتبط بآية إلهية: هزيمة قريش أمام المسلمين وربطها بهلاك آل فرعون .

❁ الآية الأولى مؤكدة بأن، وقد ارتبطت بآية واقعية هي حفظ الله للعبد في يقظته ونومه في سائر أحواله وأوقاته، وحفظ الله لنا أمر مسلم، وكم لله من أطراف! وهنا ربط بين حفظ الله لنا تلك الحقيقة المستيقنة، وبين سنة الله في التغيير، فالذي حفظ الخلق وثبتهم على حالٍ قادر على تغيير الأحوال وتبديل الأمور. والآية الثانية أيضًا جاءت مؤكدة بأن، والإشارة لما وقع لقريش يوم بدرٍ من عقوبة وتبدل حالٍ، وأنه بعدل الله تعالى .

❁ في آية الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ الأولى بالفعل المضارع المنفي، والثانية باسم الفاعل، ودلت الآيتان على أن التغيير سنة مطردة متكررة عبر

للأحسن فسعى لتزكيتها، بتطهيرها من الآفات وتنميتها بالخيرات، كالفلاح يحرق الأرض وينقيها من الأعشاب الضارة بالنبات، ويسويها ويهيئها ثم يدفن البذور ويغرس الفسائل، ثم يروي الأرض ويتعهد النباتات فلا يغفل عن رعايتها وحفظها من الآفات، كذلك النفس البشرية تحتاج لتخلية ثم تحلية ثم تنقية ثم تنمية.

قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨]، فإن حب التطهر نابعٌ من إرادة التغيير للأحسن والأصلح، وتزكية النفس طهرٌ ونماءٌ، وتخليةٌ وتحليةٌ وارتقاءٌ.

وتغيير الأنفس هو أساس كل تغيير، فالفرد لبنةٌ من لبنات المجتمع، بصلاحه واستقامته صلاح المجتمع ونهوضه، ولذا جاء التعبير القرآني ﴿حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فلن يتحقق تغيير المجتمعات بدون تغيير الأنفس، وتغيير ما بالأنفس يعني: إصلاحها وتهذيبها وتقويمها، إنها رحلةٌ في أعماق النفس وغوص في مكنونها من أجل إصلاحها وتقويم سلوكها، وسبر أغوارها لتصحيح مسارها؛ كالطبيب الذي يوغل بمبضعه في جسم الإنسان، فيعالج ما استعصى من مرضٍ وما عضل من داء .

قال الأستاذ جودت سعيد: «وكذلك من

أنواع التغيير

التغيير منه ما هو إيجابي، ومنه ما هو سلبي، فقد يكون التغيير للأفضل، وقد يكون للأسوأ، ولكل عوامله ونتائجه، وفي هذا المبحث يدور الحديث حول أنواع التغيير المحمود والمذموم .

أولاً: التغيير المحمود:

١. تغيير الأنفس.

تغيير الأنفس إلى الأحسن إنما يكون بتزكيتها، أي: تطهيرها والارتقاء بها وتنميتها، قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٧-٩] .

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسنت صاحبة كذا؟ ألسنت صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائداً»^(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «رحم الله امرأةً عرضت نفسها وعمله على كتاب الله؛ فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف أعتب نفسه ورجع من قريب»^(٢).

إن شأن من اختار لنفسه طريق التغيير

(١) محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، ص ٢٦، إغاثة اللهفان، ابن القيم، ص ٩٦.

(٢) أخلاق أهل القرآن، الأجرى ص ٣٩.

المفارقات أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع دون أن يخطر في بالنا أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك بما في الأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا، ولا نشعر أن كثيراً مما فيها هو الذي يعطي حق البقاء لهذا الواقع الذي نريد أن يزول. ونحن نشعر بثقل وطأته علينا، ولكن لا نشعر بمقدار ما يساهم ما في أنفسنا لدوامه واستمراره» (١).

قال الشوكاني: «ما بأنفسهم من الأحوال والأخلاق، بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهي» (٢).

والدعوة لتغيير النفوس بتزكيتها هي محور دعوات الأنبياء قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقَالَ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩]، فدعاه بترفق

ولين إلى تزكية النفس؛ فهي أساس كل إصلاح وتغيير، دعاه إلى أن يتطهر من الشرك ويتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل.

قال ابن كثير: «هل لك أن تعجب إلى طريقة ومسلك تزكى به وتسلم وتطبع» (٣).

وقال السعدي: «هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص ١٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢ / ٣١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٣١٥.

دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟ (٤).

وجاءت دعوة الإسلام بالتغيير قائمة على تزكية الأنفس استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] وتلك نعمة عظيمة

تستوجب شكر الله تعالى ومداومة ذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تِمَّ يَفْعَلِي عَلَيْكُمُ وَعَلَيْكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢].

ومنة كبرى سيما حين نقارن حال العرب في الجاهلية بحالهم بعد الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(٤) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠٩.

وهيئت التربة للإنبات مجدداً، فخرج ذلك الجيل الراشد، جيل الصحابة، نعم الغرس الطيب، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكعًا سَجَدًا يَتَعَفَّونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَرَرِجٍ أَخْرَجَ مِنْهُ لُطْفُهُ فَاسْتَغْفَلُوا فَأَسْتَوتُوا عَلَى سُوقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد كان لمدرسة القرآن دوراً عظيماً في صياغة هذا الجيل وإعداده، فالقرآن زاد ومنهاج، شفاءً وعلاج، طاقةً وسراج. قال رشيد رضا رحمه الله: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتمام به، والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار ومصرروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته»^(٢). حين نتأمل ونقارن بين ما كان عليه الصحابي قبل أن يسلم وما صنعه الإسلام

﴿٢﴾ [الجمعة: ٢].

ولقد كان القرآن الكريم هو منهج هذه التزكية ومصدرها وزادها ونبراسها، وكان لمدرسة الليل أثر كبير في التزكية والارتقاء. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ ۗ قُرْآنًا ۖ وَإِلَّا قَلِيلًا ۗ ۝٢﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِزْقِ الْقُرْآنِ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦﴾ [المزمل: ١-٦].

وكان للصحابة رضوان الله عليهم منهجٌ فريدٌ في التربية بالقرآن إذ كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعاً^(١). وبهذا حدث هذا التغيير العظيم لهذا الجيل القرآني الفريد الذي صنع الأمجاد وفتح الفتوحات، وأحدث تغييراً كبيراً، وحمل مشاعل النور إلى العالم.

لقد كان العالم يزرح تحت نير الجهل والظلم، ويعيش الناس في فوضى، العرب قبائل متمزقة، والعالم بين طغيان الفرس وفساد الروم، والجاهلية تضرب بأطنابها في جزيرة العرب بشتى مظاهرها، من الجهل والظلم والعادات المرذولة، كيف واجهت رسالة الإسلام هذا الركاس الفاسد فأزالته،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/ ٢٧١ من قول أبي عبد الرحمن السلمي.

(٢) المنار ٩/ ٤٦٣.

الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِقَوْمِهِ
 يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]. ونهى عن تبرج
 الجاهلية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
 تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وعن
 حمية الجاهلية وما فيها من طيش وحمافة
 واندفاع وعصية عمياء ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُغْمِيَّةً كُفْرًا كَبِيرًا﴾ [الفتح: ٢٦].
 جاء الإسلام بهذه الثورة العارمة
 على أوضاع الجاهلية الفاسدة وتقاليدها
 الراكدة. وفي حجة الوداع كان من خطبته
 صلى الله عليه وسلم إبطال كل ما كان عليه
 أهل الجاهلية من عادات وخصال ذميمة،
 كالأخذ بالثأر وأكل الربا وظلم النساء،
 وفي هذا يعلن نبينا صلى الله عليه وسلم
 في خطبته أمام الحجيج: (ألا كل شيء
 من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع،
 ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم
 أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث،
 كان مسترضعاً في بني سغيد فقتلته هذيل.
 وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا
 ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع
 كله) (٢).

فيه من تغيير ندرك أثر القرآن العظيم في
 الإصلاح والتغيير، لقد غير القرآن من
 سلوكهم وأفكارهم، غير من نظرتهم للحياة
 ومن مفاهيمهم، غير همهم وطموحاتهم،
 نقلهم من الجهل إلى العلم ومن الظلام إلى
 النور. وهل هناك تغيير أعظم من هذا! ﴿اللَّهُ
 وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
 النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿الرُّسُلَ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
 النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى
 صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

قال عمر رضي الله عنه: «والله إن كنا في
 الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله
 فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم» (١).

جاء القرآن الكريم ونفر مما كان في
 الجاهلية من مفاسد وشرور، فنهى عن
 الظنون والأوهام والتصورات الفاسدة التي
 تعد من أمر الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ
 قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
 ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن
 شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا
 لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. كما نهى

عن ظلم الجاهلية الذي تمثل في الأحكام
 المستبدة والأفضية الجائرة، ﴿أَفَحُكْمَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،
 سورة الطلاق، رقم ٤٦٢٩، ومسلم في
 صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء،
 رقم ١٤٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب
 حجة النبي، رقم ١٢١٨.

أغصانها بما يبهج الناظرين ويعجب الزراع لحسنه ونضرته.

عن الضحاك قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم قليلاً، ثم كثروا واستغلظوا^(١).

وإنما مثلهم بالزرع المشطوي؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمو^(٢).

وللتغيير الاجتماعي أهميته فهو الهدف المنشود والأثر الفعال في الوجود، ولا يتحقق إلا بتغيير الأنفس.

ونلاحظ هنا: قوله تعالى ﴿حَتَّى يَفْعَلُوا مَا بَأْسِهِمْ﴾: حيث إسناد فعل التغيير إلى واو الجماعة، وجمع النفس لبيان كون التغيير أقرب إلى العمل الجماعي التعاوني، وليس لكل فرد حرية التغيير كيفما يشاء، بل هو منهج عام شامل ومنظومة موحدة، فالمسئولية وإن كانت فردية في أصلها حيث يحاسب الفرد عن نفسه ويسأل.

قال تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/٢٦٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/٣٢١، ٣٢٧.

٢. تغيير المجتمعات.

أولاً: تغيير المجتمعات نابع من تغيير الأنفس.

تغيير المجتمعات أو التغيير الاجتماعي يقوم على تغيير الأنفس أولاً؛ فهي لبنات المجتمع وعماده، ثم التغيير العام للمجتمع، بالإصلاح والدعوة والتربية. لقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتربية الرعيل الأول من الصحابة على القرآن، يثبت إيمانهم ويرسخ عقيدتهم ويعلمهم مكارم الأخلاق، ويبصرهم بسنن الله في الكون، ويقص عليهم قصص السابقين، ويربيهم على أصول التشريع من العبادات والمعاملات، حتى أعد هذا الجيل الذي هب لنصرة الحق وحمل لواء الدعوة ونشرها في الآفاق.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿سُبْحَانَ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رِجْمًا بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيعٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد نما هذا الجيل وترعرع، بدأ كالنبته الضعيفة أطلت ببرعها اللدن وأشرفت على سطح الأرض، تنمو وترتفع، وسرعان ما كبرت واشتد عودها، وامتدت جذورها تقوي صلتها بالأرض وثبتتها، وتفرعت

وَعَدَّهُمْ عَذَابًا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ مَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، إلا أن ثمة مسئولية جماعية تقع على الجميع، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥] .

ولا بد من ملاحظة التغييرات الجزئية، فهي نذير أو مؤشر للتغيير الكلي، فما التغيير العظيم إلا نتاج تغييرات صغيرة متعاقبة، فالنبات ينمو كل يوم، وقد لا نشعر به حتى نفاجأ باستوائه ونضجه، كذلك التغيير الكبير مجموعة من التغييرات اليسيرة، فإذا تكاثرت الخبث شيئاً فشيئاً أفضى للهلاك، لذا تأتي أهمية ملاحظة التغييرات الجزئية؛ لأنها مؤشر على التغيير الكلي .

عن زَيْنَب بنت جَحْشٍ رضي الله عنها (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرعاً يقول: لا إله إلا الله، وإنلُّ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإضبعه الإبهام والتي تليها، قالت زَيْنَب بنت جَحْشٍ: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث) (١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقترب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠ .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها: كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) (٢).

وقوله ﴿مَا يَأْنِسِيكُمْ﴾ أي: من طبائع وأخلاق ومن أفكار ومفاهيم، ومن ظروف وأحوال .

وإن تغيير ما بالنفس لا بد وأن يكون عن علم بطبيعة النفس وسنن التغيير، ولا سبيل لمعرفة كافية إلا بالاسترشاد بنور الوحي، فالله تعالى أعلم بنا .

قال تعالى: ﴿زَيْكُرُ أَعْلَىٰ يَكْرُ﴾ [الإسراء: ٥٤] ﴿زَيْكُرُ أَعْلَىٰ يَمَافِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥] .

فتغيير ما بالأنفس يبدأ بمعرفتها والوقوف على علل وأدوائها، والتبصر بالمنهج الأمثل للتغيير .

يقول الأستاذ جودت سعيد: «فما لم نسيطر على خارطة تغيير ما بالأنفس وما

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٣٦١

لأن الخير والرزق كله في المطر»^(٣).
 ب - الإيمان والتقوى وإقامة ما أنزل الله لا تغيير بدون إيمانٍ خالصٍ وتقوى صادقة وإقامةٍ لما أنزل الله بتبينه والامثال له والدعوة إليه، هنا يحدث التغيير للأفضل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]

«فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضا.. وكم من أمة غنية قوية، ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق ويتنظرها الانحلال. فهي قوة بلا أمن. وهو متاع بلا رضى. وهي وفرة بلا صلاح. وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد. وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال..»

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، وبركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طبييات الحياة.. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن. وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»^(٤).

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ

لم يتمكن بوضوح من سنة التغيير، وما ينبغي أن غيره سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمنا، ونبذ أفكارًا ونعاديها بينما لا غنى لنا عنها، مثال ذلك عدم مبالاةنا بعلم تغيير ما بالأنفس، هذا فضلًا عن إعراضنا عن عبر التاريخ التي توضح لنا ما ينبغي أن غيره، فهنا نحتاج لعلمين، علم تغيير ما بالأنفس، وعلم آخر وهو ما نميز به ما ينبغي أن غيره وما ينبغي أن نبقية»^(١).

ثانيًا: من عوامل التغيير.

أ - الاستقامة على المنهج، من عوامل التغيير الاستقامة على الطريق، كالمسافر حتى ينتقل من بلد إلى بلد لا بد أن يوجه شطره نحو البلد التي يريدتها، ويأخذ طريقه إليها؛ كذلك لن يتحقق التغيير بدون الاستقامة على الطريق الذي حدد القرآن معالمه، وبين حدوده ومراسمه، ودعا إليه، وحذر من النكوب عنه.

قال تعالى: ﴿وَالْوِاسْتِقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ وَ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

«قيل: المراد: الخلق كلهم، أي: لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين» لأسقيناهم ماءً غدقًا «أي: كثيرًا»^(٢). «وضرب الماء الغدق مثلاً

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص ١٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ١٨.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥ / ١٦١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ٢٦٢.

ءَامَنُوا وَاتَّقُوا لِكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَخِيبَةً
وَلَا دَخَلْتُهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ
أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَصْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

[المائدة: ٦٥-٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر، وأخرجت لهم من نبات الأرض^(١).

وهذه دعوة لأهل الكتاب مع ما سلف منهم، دعوة لإصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتخلي عن الجحود والنكران، والتحلي بالإيمان، والتزود بالتقوى، ليفتح الله لهم باب التوبة والرجاء، لو آمنوا حق الإيمان بجميع الرسل وسائر الكتب واتقوا محارم الله لغير الله من حالهم، وتلك بداية رحلة الإيمان، من أنقاص تلك الكتب وما بقي فيها من حقائق تسرح المشاعر التي تثير درب الحق، ففي تلك الكتب المرشد والدليل، ولو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم لو أقاموها نصب أعينهم حتى ينظروا ما انطوت عليه من بشاراتٍ تدل على النبي صلى الله عليه وسلم، لآمنوا بخاتم النبيين. والآية تحمل لهم روح العتاب على أعمارٍ طويت وسنواتٍ تولت

بعيدًا عن الحق، فاليهود لم يؤمنوا بعيسى، بل جحدوا ما بأيديهم من بشارات تشهد بنبوته، ثم زاد نكوبهم عن الصراط ونكولهم عن الحق بجحودهم نبوة خاتم النبيين، وتخاذلهم عن نصرته، بل ونقضهم العهد والمواثيق، والنصارى نكبوا عن الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام. فلو أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة لعمهم الخير وأقبل من كل مكان.

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]

قال مجاهد: مخرجًا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجًا في الدين من الشبهات، وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بيئاتًا. وقال ابن إسحاق: فصلًا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم، ويطفئ باطل من خالفكم^(٢).

ولا شك أن حصول هذه الأمور تغيير جذري في حياة الإنسان؛ أن يمتلك الرؤية الثاقبة، والنظرة الواعية؛ فيستطيع التفريق بين الحق والباطل والخير والشر سيما عند التباس الأمور وتشابك المصالح.

ت - عبادة الله وحده وكثرة الاستغفار

(١) معالم التنزيل، البغوي ٦٨/٢.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢٨٦/٢.

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿١٦﴾ [العنكبوت: ١٦]

وأخبر الله تعالى عن عيسى قوله لبني إسرائيل ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ [آل عمران: ٥١].

وهكذا جميع الأنبياء استهلوا دعوتهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وانطلقوا من خلاله إلى إصلاح النفس والمجتمع.

ثانياً: التغيير المذموم:

١. تغيير في الأنفس.

خلق الله النفس البشرية وسواها على الفطرة وبين لها طريق الغواية وطريق الرشاد، وأوكل الاختيار إليها، إما أن تسلك طريق الفلاح بتهديب النفس والنهوض بها، وإما طريق الخيبة والضياع بإهمالها ودفنها في حفرة الأهواء والملذات.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ونماها وأعلاها بالباقيات الصالحات، وقد خاب من دساها: أهلكها وأضلها وأغواها^(١).

٢. تغيير في المجتمعات.

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبدالعزيز السلطان ٣ / ٤٥٧.

والتوبة الخالصة من الذنوب.

نهى القرآن عن عبادة غير الله؛ ودعا إلى كثرة الاستغفار والتوبة النصوح ووعده بطيب العيش والعافية وطول العمر في طاعته ومرضاته، والارتقاء والتفوق على سائر الأمم، في القوة والعلم والمنعة والفضل. قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ إِنَّا لَكُمْ مِنَّةٌ نَّذِيرٌ وَيَسِّرْ ﴿٢﴾ وَأَن أَسْتَغْفِرُوا لَكُمْ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعْكُم مِّنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٢-٣].

وقد سجل القرآن الكريم دعوات الأنبياء لأقوامهم كيف بدأت بإخلاص العبادة لله جل وعلا فهي الركيزة الأساسية لأي إصلاح وتغيير، فالعبادة محور حياة المؤمن. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿وإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾

فرح المغرور المفتون، فيحق عليهم العذاب وتحل بهم النقم ويتبدل الحال إلى شقاء لا نعيم بعده، فإذا هم نادمون آيسون .

قال السدي: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ «معناه: هالكون قد انقطعت حجتهم، نادمون على ما سلف منهم، متغير حالهم»^(١).

وقال ابن زيد: المبلس: الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه^(٢).

فالابتلاء الجماعي للأمم والشعوب بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ إنما يقع تمحيصاً لها وتصحيحاً لمسارها، وإصلاحاً لفسادها، وإزالةً لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريداً للقلوب وترقيقاً للمشاعر، وتوجهاً إلى الله تعالى، لتري الأكف ضارعةً والأعين دامعةً والقلوب خاشعةً، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائد إلا قسوةً وعناداً، وصدوداً وإعراضاً، فتصب أنهار المحن في بحار الذنوب، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبة والخسران. ثم يستأنف الاختبار من جديد، لكنه هذه المرة يكون أشد صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنة الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابها ففرحوا بما أوتوا فرح العجب والاعتزاز

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٦١/١١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢٠٢٣/٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣٦١/١١.

قد يتغير المجتمع إلى الأسوأ وفي القرآن الكريم نماذج عديدة لهذا التغير ومظاهره وأسبابه، وحديث القرآن في هذا السياق تارة يكون عامًا لا يشمل مجتمعا بعينه بل يبين عموم هذه السنة واطرادها، وتارة يأتي الحديث عن قرى بعينها كمثال واقعي.

أولاً: التغيير سنة عامة ومطرده.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاتَّخَذْتَهُمُ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَفْتَةٍ فَوَقْدَ اللَّهُمُ مَبْلِسُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[الأنعام: ٤٢-٤٤].

يخبر تعالى عن سنته الجارية في الأمم الماضية الذين واجهوا دعوات الأنبياء بالكذب والإعراض، كيف حول الله حالهم من سعةٍ وخصبٍ إلى شدةٍ وبؤس، ومن منح وعطاء إلى محن وحرمان، وذلك امتحاناً لهم هل يتضرعون لربهم ويلوذون ببابه، فيكشف عنهم البلاء ويغير من شدتهم وكرههم إلى فرح ورخاء؟ لكن قسوة قلوبهم حرمتهم من التصرع لربهم ليغير ما بهم، وزين لهم الشيطان سوء عملهم فلم يسعوا للتغيير ولم يفكروا فيه، وهنا يبتليهم الله بالسراء ويفتح لهم أبواب الرخاء فيفرحون بما أوتوا

وقال أبو حيان: هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فعظموا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمرهم الله وخرب ديارهم (٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَبَّتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّتْهَا عَذَابًا لَّكْرًا ۗ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۗ﴾ [الطلاق: ٨-٩]

وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وخرجوا عن أمر رسله وشاقوه، فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم، فبدل الله حالهم من لطف وإنعام وستر إلى شدة وبؤس وعذاب وإرهاق لا يطاق، فلم تنفعهم قوتهم ولم تغن عنهم كثرتهم.

قال ابن عباس: ﴿عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: أعرضت عنه. وقال مقاتل: خالفت أمر ربها، وخالفت رسله (٣).

ثانيًا: نماذج من التاريخ.

في القرآن الكريم أمثلة واقعية كثيرة لسنة التغيير، من ذلك ما وقع لقوم سبأ من تبدل الحال بعد نعمة وخفض عيش إلى شظفٍ ونقمةٍ حين كفروا بنعمة الله وأعرضوا عن

الحنبلي ٢٧٦/١٥.

(٢) البحر المحيط ١٢٧/٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٤٦٥.

والخيلاء والاستكبار، فرحوا بالنعم وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحهم بالمعاصي والموبيقات؛ تفاخرًا بما أوتوا من ظل زائل وعارية مستردة، وزعموا أن تبدل الحال وقع اتفاقًا ومصادفة؛ غافلين عن الحكمة في ذلك، ومتجاهلين كونه امتحانًا لهم فهم في غفلة عن سنن الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ۗ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۗ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلِك مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَكُنْ مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۗ﴾ [القصص: ٥٨].

فكم من قري كثيرة أهلكها الله حين تمردت على النعمة واغترت بها وضيعت حقها، وتلك مساكنهم أضححت مدائن دارسة وأطلا لاخرية؛ عبرة صامته وموعظة ناطقة، يمر عليها المسافر، ويعبرها العابر، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها. قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون، ومار الطريق يومًا أو ساعة. معناه: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا يسيرًا قليلًا، وقيل: لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب (١).

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل

الحق.

• قوم سبا.

فتبطلوا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلاً، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى من بعد الأسفار جحودًا وإنكارًا لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللمهم، فجعلناهم عبرة يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم ويؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلمهم بعد عزهم، حتى صار تفريقهم مثلاً سائرًا فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا. (١)

• قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِتَّفَقُوا عَلَيْهِمْ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ هُوَ اللَّهُ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

[الأفعال: ٥٢-٥٤].

حين كذب قوم فرعون وعصوا رسول ربهم عاقبهم الله بعقوبات شتى عاجلة، كدرت عليهم صفو حياتهم، وضيقت معيشتهم فلم يغيروا من حالهم شيئاً، فكانت العقوبة الكبرى حين أهلكهم الله بالغرق.

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١ / ٢٧٥.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَلِيمَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبْأَ سَبْرًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعُدَّ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

[سبأ: ١٥-١٩].

لم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المنعم جل وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسلط الله عليهم السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئة الثمر، كالطرفاء والسدر وغيرها من الأشجار التي لا تغني من جوع. ذلك العقاب بسبب كفرهم وجحودهم، فلا نعاقب إلا من كفر بالنعم وأصر على ذلك وتمادى فيه، فيتبدل حاله من رغد العيش وطيب الحياة ووفرة الثمر إلى القحط والجذب وتلف الزروع وقلة الثمر.

أسباب التغيير

للتغيير المحمود أسبابه وكذا للتغيير المذموم، وهذا دليل على عدل الله وحكمته ولطف تدييره، فمن أسباب التغيير الإيجابي الإيمان وما ينبثق عنه من عمل صالح، وما يشع من أنوار تذكره بالماضي ليعتبر بمصير السابقين، وتضيء له حاضره ومستقبله.

أولاً: أسباب التغيير المحمود:

١. الإيمان.

إن الإيمان هو القاعدة لأي إصلاح، والركيزة لأي منطلق، والسييل إلى كل خير. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتْلِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فكل عمل صالح منبعه الإيمان، لا ينهض به إلا أهل الإيمان، فهم جديرون بنيل الهداية والرشاد وإحراز التوفيق والسداد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَقُضِيَ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

والخير كله في أهل الإيمان والعمل الصالح فهم صفوة الخلق وخيارهم، إيمانهم يرقى بهم ويهذب سلوكهم ويصلح

من حالهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فالإيمان مع عمل الصالحات هو الركيزة الأساسية للاستخلاف والتمكين، والتغيير للأفضل، التمكين بعد الابتلاء والاستضعاف والتضييق، والخوف بعد الأمن والعزة بعد الهوان والقوة بعد الضعف.

والإيمان طريق الفلاح في الدارين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

وذكر الله من صفاتهم وأحوالهم ما نالوا به الفلاح، واستحقوا به التغيير إلى الأفضل بإيمانهم ولوازمه.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢-١٢٣].

بهذا النور نور الله فيرى الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخطئ في طريقه، ولا يتعثر في خطواته، والإيمان بصراً يمضي بصاحبه في الطريق على نور، وعلى ثقة، وفي اطمئنان. والإيمان ظلٌ ظليلٌ، تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظلٌ من هاجرة الشك والقلق، والحيرة في التيه المظلم بلا دليل. والإيمان حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والاتجاه.. كما أنه حركةٌ بانيةٌ، ثمرة، لا خمود فيها، ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع^(٢).

«إنه الإيمان الصادق الذي يقر في القلب تصديقاً و يقيناً، ويفيض على الجوارح سلوكاً وعملاً، إنه الإيمان الذي يضيء القلب، ويحرك الإرادة، ويوجه العقول، ويوظف الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها لثبوت وجوده، وترجم عن حقيقته، إنه الإيمان الذي يصلح القلوب، ويهيم النفوس، ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خلقاً آخر، ويصبه في قالب جديد يغير هدفه ويهذب سلوكه وذوقه ونظرته للحياة»^(٣).

وبالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأفهام، وبه تسمو الأرواح وتتألف، وتتفتح الأذهان وتتوقد القرائح وتنشط الجوارح، وتعلو الهمم وتنهض الأمم،

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٦.

(٣) خصائص المجتمع الإسلامي، محمد الخطيب ص ١٨-١٩.

فالإيمان أعظم عطاء؛ لأنه سبيل كل عطاء وأساس كل تغيير، فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأذهان، لا يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبط في ظلمات الكفر، ويتردى في دركاته، لا يسعى إلى الخروج منها؛ فلا يتغير حاله إلى الخير.

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لإتباع رسله»^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُّخَشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأي تغيير أعظم وأي تحول أكبر من الانتقال بالإيمان والاستجابة لداعي الحق من الموت والعدم إلى الوجود والحياة، حياة القلوب والأرواح! فالموت والحياة ضدان لا يجتمعان، والانتقال إلى الحياة والتحول من الظلام الدامس إلى النور الساطع تغيير شامل جذري في حياة الإنسان.

إن الإيمان نور؛ نور في القلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء، والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد، فالمؤمن ينظر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٨٩.

ينير القلوب ويرهف الأحاسيس، ويرقق المشاعر ويهذب النفوس، ويحرك الوجدان، وينشط الجوارح، ويوجهها إلى العمل الصالح، الإيمان الذي يصنع البطولات والأمجاد ويغير النفوس ويقلب وجه التاريخ في سرعة فائقة وفي تحولٍ مذهلٍ.

«إن مفتاح شخصية هذه الأمة ومصدر طاقاتها هو الإيمان الذي جعل هذه الأمة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات في الأرض على الرغم من قلة عددها وضعف عدتها، وبهذا الإيمان انتصرت بعد هجمات التتار الزاحفين من الشرق، والصليبيين الزاحفين من الغرب، وبه تستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء»^(٢).

فما أحوجنا إلى الإيمان بمفهومه الصحيح الشامل الذي ورد في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الإيمان الذي فهمه الصحابة الكرام والتابعون وتابعوهم بإحسان.

ما أحوجنا إلى إيمانٍ خالصٍ راسخٍ يعيد لنا مجدنا وعزنا .

فكلما ضعفت إرادة العبد، ووهنت قواه وكل جهده في السعي إلى المعالي، أمده هذا الإيمان الصادق بالزاد الروحي وأذكى في فؤاده روح المثابرة وأشعل في قلبه وقود الانطلاق، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان ملاذًا آمنًا، وحصنًا حصينًا، يفيء إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، والإيمان سر التفوق وإكسير النجاح، بالإيمان يرقى وينهض، فهو زاد القلوب وضيء العقول ونور البصائر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية واصفًا أهل الإيمان: «ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في القرون والأجيال»^(١).

إنه الإيمان الذي يصنع المعجزات، ويقود إلى التغيير، فترتقي الأمم وتنهض، وتهبط عليها البركات.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والإيمان الذي تنهض به الأمة ليس المقصود به مجرد معرفة ذهنية، وحواشٍ كلامية، أو إضاعة للأعمار في حوارات ومساجلات عقيمة، وإنما هو الإيمان الحي العملي الصادق المخلص، الذي

(٢) أين الخلل؟ د. يوسف القرضاوى ص ٢١.

(١) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٨.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي^(١):

ملكنا هذه الدنيا قرونًا

وأخضعها جدودُ خالدون

وسطرنا صحائف من ضياء

فما نسي الزمان وما نسينا

وما فتئ الزمان يدور حتى

مضى بالمجد قومٌ آخرون

وأصبح لا يرى بالمجد قومي

وقد عاشوا أئمتهم سنين

وألمني وألم كل حـر

سؤال الدهر أين المسلمون

ترى هل يرجع الماضي فإني

أذوب لذلك الماضي حينًا

فها توالي من الإيمان نورًا

وقووا بين جنبي اليقين

فمد يديك وانتزع الرواسي

لتبني المجد خفافًا مبينا

لقد جاء القرآن كله لتوثيق الصلة بين

العقيدة والسلوك.

تأمل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ

فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَهُ مِنَ الْبَشَاءِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

[المائدة: ٥٤].

ترى كيف يتجلى أثر العقيدة القوية في

إصلاح النفوس واستقامتها وتساميتها ورقبتها

وريادتها، محبة الله للعبد ومحبه لربه

وأثرها في رشاده وثباته وتوازنه في معاملاته

ورحمته ولينه لإخوانه وشدته وحزمه مع

أعدائه وقوته في الحق فلا يجبن ولا يداهن .

وهكذا كلما تأملنا في القرآن وجدنا أثر

الإيمان على سلوك الإنسان، فتوجيهات

القرآن كلها موجهة للمؤمنين، ينادي عليهم

ربهم في كتابه لخير يأمر به أو لشر يحذر منه،

أو لترهيب أو لترغيب، أو لتذكير أو لتبصير،

وتربط آيات القرآن بين الإيمان والعمل

الصالح، وتهيج مشاعر المؤمنين للأعمال

الصالحة والأخلاق الطيبة.

تأمل على سبيل المثال في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ وَذُرُوا مَا بَقِيَ

مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨].

حيث بدأت الآية بالإيمان وختمت به،

بدأت ببناء إيماني وتحذير وأمر رباني، ثم

ختمت بتبهيج مشاعر الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [آل

عمران: ١٣٩].

فأهل الإيمان هم أهل الثبات واليقين

وأهل العزة والتسامي بإيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا

لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧].

والآية مما نزل في شأن قصة الإفك

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٩٦.

بِالْتَوَّاهِ إِلَّا مَا رَجَمَرْتَنِي إِنَّ رَبِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾
[يوسف: ٥٣].

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّٰوَاةِ﴾ قال: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ما أردت بحدِيثي نفسي ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه^(١).
وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِالنَّفْسِ اللّٰوَاةِ﴾ قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِالنَّفْسِ اللّٰوَاةِ﴾ قال: تندم على ما فات وتلوم عليه^(٢).

قال ابن جزى: «النفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات فإن النفوس على ثلاثة أنواع؛ فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة. وقيل: اللوامة هي المذمومة الفاجرة. وهذا بعيد؛ لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات، ويستقيم إن كان ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ نفيًا للقسم»^(٣).

قلت: على كونه نفيًا للقسم فهو تنويه بالمقسم عليه؛ لأن الآيات التي وردت بهذه

(١) الدر المشور، السيوطي ١٥ / ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ١٥ / ٩٦ .

(٣) التسهيل، ابن جزى ٣ / ٢٥٥ .

وفيها تحذير لمن وقع في الإفك، وأنه لا يليق بمؤمن أن يخوض في عرض العفاف، وهكذا نرى أثر الإيمان على النفوس وأنه مفتاح التغيير.

كذلك يقترن الإيمان بالعمل الصالح فهما متلازمان لا يفترقان، حيثما ذكر الإيمان عطف عليه العمل الصالح، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر. والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح، فلا إيمان بدون عمل ولا عمل بدون إيمان.

٢. الواقع السيء.

استشعار الداء هو أول الطريق إلى التغيير أن يدرك الإنسان أنه في حاجة للتغيير، وأن ينبري العقلاء إلى كشف الخلل وتشخيص العلل من أجل البحث عن علاج ناجع، وإن لم يستشعر العقلاء مواطن العلل ومواضع الخلل فلن يحدث التغيير، ولقد فرق القرآن الكريم بين نفسين: نفس لوامة تلوم صاحبها على تقصيره وتسعى لارتقائه، ونفس خبيثة أمارة بالسوء تبرر الأخطاء وتستعذب الذنوب.

قال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِبَوَاقِيَةِ ۝ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّٰوَاةِ ۝﴾ [القيامة: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَا نَفْسًا إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارًا﴾

تكونون غثاء كغثاء السيل، تشرع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن». قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الحياة وكراهية الموت»^(٢).

٣. الخوف من سوء العاقبة.

لا شك أن الحذر من سوء العاقبة مما يحمل العبد على أن يغير من نفسه ويصلح من شأنه، حذرًا من أن يصيبه ما أصاب الظلمة والعصاة، ولقد حذر الله المؤمنين من سوء العواقب، ورد ذلك في آيات كثيرة. تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

فقد نزلت الآية في بداية التعقيب على غزوة أحد تسلية للقلوب وتسرية عن النفوس، فالأمور بعواقبها، والأيام دول، وأمر الله بالسير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين للعظة والاعتبار والتسلي والثبات على الحق. سيروا في الأرض كيفما شئتم ونقبوا في البلاد فلن تجدوا من أفلت من حكمنا من المكذبين، بل عاقبتهم واحدة ونهايتهم محتومة مؤلمة.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٨٢/٣٧.

الصيغ كل ما ورد فيه من محل القسم ذو شأن عظيم.

كذلك لا شأن بالنسبة لأمراض المجتمع ومواطن الخلل فيه إن لم يتب لها العقلاء أودت بالمجتمع وجرته إلى المهالك، قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الْأَنْصِيَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقد جاء في الحديث عن زينب ابنة جحش رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرحًا يقول: لا إله إلا الله، ويُلُّ للعرب من شيرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإضبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث.^(١)

وروى الإمام أحمد في المسند: عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها». قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراف الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠.

كانوا يستهزئون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف.

والثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين، وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب. وقد أخذ الله - من قبلهم - قروناً كانت أشد منهم قوةً وتمكيناً في الأرض؛ وأكثر منهم ثراءً ورخاءً، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة؛ التي ترج القلوب رجاً بهذه اللفتات الواقعية المخيفة^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] والدعوة لمنكري البعث الهازئين به المشككين فيه، فلينظروا في عواقب من سبقهم من المجرمين الذين أنكروا الآخرة فلم يتورعوا عن أي إثم ولم يرعوا عن أي جرم، فكان عاقبتهم الهلاك والدمار. وحذر الأنبياء أقوامهم من مصير الهالكين السابقين.

قال تعالى في قصة شعيب: ﴿رَبِّعَوْرًا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [١٨] ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [١٩]

قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١).

وأمر الله تعالى بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين نظر اعتبار وادكار، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

والخطاب موجه للمشركين وكانوا يضربون في الأرض للتجارة، فأمرهم الله بالاعتاظ بغيرهم ممن كذب.

قال سيد قطب: «إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول: تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنك المكذبين؛ وتطمين قلبه - صلى الله عليه وسلم - إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعاً في تاريخ الدعوة إلى الحق. فقد لقي مثله الرسل قبله؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحقاق بهم ما

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٤٨٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ١٩٩.

[هود: ٨٩-٩٠].

تبين الآية الكريمة كيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنه: لما أعرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبال الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

فتركوا له الزمام وأذعنوا له وساروا في ركابه، إلا من عصمهم الله من وساوسه ونجاهم من إغوائه. وما تسلط عليهم بقوة وقهر بل بمكره وحيله التي تنظلي على أهل الأهواء والشكوك.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِيَصْحَبَ إِلَيْهِ أَفْعَدَّةٌ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

عن مالك بن دينار رحمه الله أنه قال: «شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن؛ وذلك أنني إن تعوذت بالله من شياطين الجن ذهب عني، وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عياناً»^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن

وكثر في القرآن الكريم التحذير من مصارع الغابرين وسوء عواقب المكذبين بما فيه المزدجر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ وَكَلِمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تَعَنَّ الْأَنْذَرُ ﴿٥﴾﴾ [القم: ٤-٥].
فلا اعتبار بالسابقين والاتعاظ بمصيرهم مما يزجر النفس عن المعاصي ويصرفها عن القبيح، وقيمتها على طريق الرشاد.

ثانياً: أسباب التغيير المذموم:

١. اتباع الشيطان وأعدائه.

الشيطان داعي الهوى، يزين القبيح، ويقبح الحسن، كم من معصية هونها، وكم من طاعة سوفها، وكم من بدعة حسنها، وكم من سنة صرف الناس عنها، وأعدائه من الشياطين يسعون إلى غواية الناس وإضلالهم وإفساد دينهم وديانهم، وكذلك أعدائه من شياطين الإنس.

قال تعالى عن قوم سبأ وقد تغير حالهم وتبدل من النعمة إلى النعمة ومن الرخاء إلى الشدة، بإعراضهم وكفرانهم وتبطيرهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسَ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

[سبأ: ٢٠-٢١]

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٨٠.

وفجور. وكأني بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطان كبير، وتأثير شديد على الناس، لقد وجه شياطين الإنس من أعداء الإنسانية بوحى من شياطين الجن كثيرًا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملأوها بالبرامج المزخرفة المموهة التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم»^(٤).

وقال تعالى ناهيًا ومحذرًا من خطوات الشيطان التي يستدرج بها الإنسان حتى يوقعه في الحرام: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾ [البقرة: ١٦٨]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ [النور: ٢١]

«قال الضحاك: هي الخطايا التي يأمر بها، وقال أبو إسحاق: أي: لا تقفوا آثاره؛ لأن تركم شيئًا من شرائع الإسلام اتباع الشيطان»^(٥).

للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، وأضلله بكذا، قال: فهو قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

قال ابن الجوزي: «وأما قوله ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فهو ما زين منه، وحسن، وموه»^(١)، «يزين بعضهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقًا»^(٢).

وقال البقاعي: «والغرور: هو الذي يعتقد فيه النفع وليس بنافع»^(٣).

ويقول الشيخ عبد الحميد طهماز: «ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شرك الضالين المضلين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوق المزخرف الذي يخفون في طياته السم الناقع، فما أكثر ما يخلطون السم بالدم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم

(٤) بصائر الحق في سورة الأنعام، عبد الحميد

طهماز ص ١٠٦-١٠٧.

(٥) معاني القرآن ١/١٥٤.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٣٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٩.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٣/١١٣.

﴿قُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن عباس: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه^(٢).

فصاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، والهوى طريق الهلكة والضياغ: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثٌ مُنجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ: فأما المُنجيات: فألعذل في الغضب والرضا، وخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فشح مطاعٌ، وهوى متبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه)^(٣).

ولقد أورد ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى آثارًا للسلف في ذلك منها ما رواه عن مالك بن دينار: أنه قال: بشس العبد عبدٌ همه هواه وبطنه، وقال ابن السماك: إن شئت أخبرتكَ بدائك وإن شئت أخبرتكَ بدوائك، داؤك هواك ودواؤك ترك هواك^(٤).

واتباع الهوى من الأسباب الرئيسة في تردي المجتمعات وانتكاسها؛ فإن الإعراض

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي ص ١٦.

(٣) أخرجه البزار في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كما في كشف الأستار عن زوائد البزار، رقم ٨٠، ١/٥٩.

وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٥١٢٢.

(٤) انظر: ذم الهوى، ابن الجوزي ص ١٢.

فلا يزال الشيطان بالإنسان حتى يدفعه إلى تعاطي الحرام، من المآكل والمشارب والمناكح، فالحذر الحذر من وساوسه وخطواته، وحبائله وخطراته التي يستدرج بها أهل الغفلة، فإذا تعاطى الناس الحرام فشا الظلم وخيم الضلال، وانتشر الخنا والفجور، وفسدت المجتمعات وتردت إلى الهاوية.

٢. اتباع الهوى .

واتباع الهوى: «السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل أو الرجوع إلى شرع أو تقدير لعاقبة»^(١).

واتباع الهوى يفضي إلى الانسياق وراء الملذات والانغماس في الشهوات، والنفور من الحق، وكراهيته، وما ينبثق عن ذلك من ظلم وافتراء، وتردي الأخلاق، وانفراط عقد المجتمع، وفقدان نعمة الأمن وتلاشي العدالة الاجتماعية، وسقوط المجتمع في براثن الطغيان والاستبداد، وتسلب الظلمة، وتصدر الفسقة، وتمكن المنافقين ومرضى القلوب. ولقد حذرنا المولى عز وجل في كتابه الكريم من إتباع الهوى، وأنذر الذين ملك الهوى زمام قلوبهم، ودعا إلى تجنب أصحاب الأهواء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَضَلَّنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ (١) آفات على الطريق، سيد نوح ١٦/٢.

سيما ممن نال حظا من العلم، وهو مع ذلك ينساق للجهال، فيضيع نفسه ويضيع غيره.

قال تعالى: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُنَكِّتَهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

قال الشيخ رشيد رضا: «وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه، وهي أخس أحواله وأقبحها، والمراد -والله أعلم- أنه كان من إخلاده إلى الأرض، واتباع هواه في أسوأ حال، خلافاً لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال، فهو في هم دائم مما شأنه أن يهتم به، وما شأنه ألا يهتم به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات، كدأب عباد الأهواء وصغار الأهمم تراهم كاللاهث من الإغياء والتعب، وإن كان ما يعنون به، ويحملون همه حقيقاً لا يتعب ولا يعيبي، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وقضى أرباً:

فما قضى منها أحدٌ لبانته

ولا انتهى أربٌ إلا إلى أرب^(١)

(١) المنار، رشيد رضا ٩/٣٤٢.

والبيت من ديوان المتنبي ٢/١٩٦، ومعنى البيت: لم يقض أحد حاجته من اللبالي؛ لأن حاجات الإنسان لا تنقضي، ولا انتهى أربٌ إلا إلى أرب. واللبانة الحاجة والأرب

عن الحق والتكوب عن الهدى، والميل إلى الهوى، مما يعمي القلوب والأبصار، ويفسد المجتمعات؛ لأنه يفضي إلى الظلم والفوضى والتخبط حين يترك العنان لكل نفسٍ وما تهوى.

والأهواء متباينة ومتنازعة، ولذا جاءت بصيغة الجمع.

من آثار اتباع الهوى على النفس والمجتمع:

١. التخبط والضلال والجور في الحكم. فإن من أسباب التخبط والجور في الأحكام وما يعقبها من مظالم تهدم المجتمعات، فإما حكم بين الناس بالحق وإما اتباع للأهواء المضلة.

قال تعالى: ﴿يٰۤاٰوْدُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِى الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾ [ص: ٢٦].

والمتبع للهوى يحرم نفسه من نعمة الهداية، إذ لم ينتفع بعلمه وأغلق سمعه وبصره عن قوارع الحق وشواهد.

قال تعالى: ﴿اَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْاِهْمَهُ هَوٰىهُ وَاَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلٰى عَمْرٍ وَاَحْتَمَّ عَلٰى مَمۡوۡوۡهٍ وَّقَلۡبِهٖ وَاَجَعَلَ عَلٰى بَصۡرِهٖ عِشۡوَةً فَمَنۡ يَّهۡدِيۡهِ مِنۡۢ بَعۡدِ اللّٰهِ اَفَلَا تَذَكَّرُوۡنَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

٢. الانتكاس والسقوط.

ولا شك أن في اتباع أهل الأهواء مع وضوح الحق وقيام حجته مفسدة عظيمة

٣. الإفراط.

والإفراط يفضي إلى التقصير والعجز، وإضاعة الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أي: «ضباعاً وهلاكاً، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله تعالى تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدي إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ تسفية لهؤلاء المشركين، وما هم فيه من عناد يسوقهم إلى الهلاك، ويخرجهم من الدنيا، وقد خسروا الدنيا والآخرة جميعاً^(٢).

٤. الإعراض عن الحق مع جلالة.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤١] فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ [القصص: ٤٩-٥٠]. فلا أضل ممن ساقه الهوى، ويعد عن الهدى.

٥. الخذلان والحرمان من ولاية الله

ونصرته.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

فجزاء اتباع أهل الأهواء الخذلان والضياع. أخرج أبو الشيخ عن الضحاک رضي الله عنه في قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ قال: من أحد يمنعك من عذاب الله تعالى^(٣).

٦. العمى والصمم عن الحق.

فمتبع الهوى له عين لا يبصر بها وله أذن لا يسمع بها وله عقل لا يعقل به، فحياته كالبهائم بل أضل، إذ البهيمة لا تخرج عن دورها في الحياة، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَىٰ إِلَهَهُ، هَوَاهُ أَفَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [٤٣] أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَىٰ إِلَهَهُ، هَوَاهُ﴾ قال: كلما هوى شيئاً ركبته وكلما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا

الغرض.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب

٥٠/٢.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٤٦٥.

(٤) المصدر السابق ١١/ ١٨٢.

تكون إلا للمفسدين.

قال صاحب الظلال: «لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الرياسة والسعي لها وجمع الثروة وطلب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم. فالترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصير على الباطل ولا تفتتح للنور»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكُنْ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عَابِدٍ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٦-١٧].

فالمترفون هم الذين يقودون عجلة الحضارة إلى الدمار بفسقهم ومجونهم، وقسرهم ضعفاء القلوب على الكفر والضلال، حتى يكون الهلاك الذي يعمهم جميعاً، بعد أن أمرهم الله بالطاعة فبادروا إلى التمرد والعصيان، قرئ (أمرنا)^(٢): أي

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٨٥.

(٢) قال أبو حيان في البحر: «قرأ ابن عباس وأبو عثمان النهدي والسدي وزيد بن علي وأبو العالية: أمرنا بتشديد الميم وروي ذلك عن علي والحسن والباقر وعاصم وأبي عمر

قَالَ مَاتُوا أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ [محمد: ١٦]. فقرنت الآية بين الطبع على قلوبهم وبين اتباع الأهواء، فداء القلب وعماءه في اتباع الأهواء. ٣. الركون وترك العمل.

لا شك أن الخلود إلى الراحة والدعة وترك العمل والاشتغال بأسباب الترف أو الكلام والجدل مما يفسد النفس والمجتمع، فمن قل عمله كثرت شهواته، والترف مفسدة عظيمة، ومهلكة خطيرة، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

فهلا كان فيمن قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهمم عالية، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلاً ممن أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونصحهم، واتبع الذين ظلموا سبيل الترف، فنافسوا على الرياسة والسلطان والثراء، لينعموا بالمال والجاه، وسلخوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، ونكوبهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحقوا الهلاك، فالترف من أسباب الفسوق والانحلال الموجب للنعمة والعقوبة التي لا

أي طريق وركوب أي حيلة ليعيش حياة الترف، والترف من دواعي القعود عن عزائم الأمور والركون للذعة.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا رسل الله وردوا دعوة الله أن يهلكهم ويذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١)
 فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَنَبَّهُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

تصور الآيات الكريمة مشهد العذاب الذي حل بالظلمة المترفين، فانطلقوا يركضون هرباً من ملاحقته، فيقال لهم على سبيل الاستهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمسكن الطيبة، «وارجعوا إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، ارجعوا إلى ما أترفتم فيه من العيش والرفاهية والحال الناعمة» (٣).

وتأمل في حال قوم سبأ حين تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٤٦.

أكثرنا فصاروا هم الكثرة الفاسدة، الأغلبية الطاغية. والمترف عالة على مجتمع، لا يعمل ولا ينتج، بل هو نديم الشهوات قعيد الملذات، لا يفكر إلا في ملء بطنه وإفراغ شهوته، فالترف داعية السرف المفضي إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكبار والموسرين، ثم ينعكس على الفقراء المعوزين فتسوء حال الأمم وتدهور أخلاقها.

قال الأوسي: «وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم أكد» (١)، فالأهم إنما يهلكها بطرها واستكبارها وغفلتها عن الحق واستغراقها في شهواتها الدنيوية دون تدبر وترو، وإنما يصلحها تدبرها وبصيرتها واعتدالها وسلوكها طريق الحق وتفكيرها في العواقب وعدم إسرافها في متع الحياة وشهواتها. (٢)

والصلة بين الانغماس في الترف والتشبث به وبين الإجرام وثيقة، فالمترف والباحث عن الترف قد لا يتورع عن سلوك

وعدي أمر بالتضعيف، والمعنى أيضًا كثرنا». البحر المحيط ١٢/٦.

(١) روح المعاني، الأوسي ٤٢/١٥.
 (٢) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ١/ ١٨٥٨.

والمراد: المسرف على نفسه، العاصي لربه، وقد يوسع على العبد الصالح تمكيناً له لصالحه وإكراماً.
وقال ابن حجر الهيتمي: «الأمن من مكر الله يتحقق بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة»^(٣).

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۗ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

أفأمن أولئك الذين يكذبون بآيات الله ويجحدونها إمهال الله لهم واستدراجهم؛ بإمدادهم بالنعم في دنياهم من صحة البدن ورخاء العيش فيأخذهم على غرة بعداب لا رجعة فيه ولا مهرب منه، وهم في نوم ورقادٍ، أو في لعبٍ ومرحٍ، أفأمن أولئك العصاة مكر الله بهم ونقمتهم عليهم فلا يأمن مكر الله إلا أهل الخسران.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار. وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار! أفأمنوا مكر الله؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع

السفر طويلاً، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى بعضهم من بعد الأسفار جحوداً وإنكاراً لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلمهم بعد عزمهم، حتى صار تفريقهم مثلاً سائراً فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا^(١)، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيحَ سَبِيحاً فِيهَا لِأَيِّمَانٍ آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٨-١٩].

٤. الأمن من مكر الله.

من أسباب التغيير: الأمن من مكر الله تعالى، فيغتر العبد ويتمادى في الذنوب والعصيان، ويمسي ويصبح في غفلة لا يلقي بالا لما قدمته يده.

قال الراغب رحمه الله: مكر الله: صفة حقيقة على ما يليق بجلال الله وكماله، ومن لوازمها إمهال العاصي وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله^(٢).

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/ ٢٧٥.

(٢) المفردات، الراغب ص ٤٧١.

(٣) انظر: الزواجر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٨٧.

الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟^(١).
 عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].^(٢)

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك وغضبك)^(٣).

وسياق آيات الأعراف وإن كانت في المكذبين الكافرين إلا أن الواجب على المؤمن الحذر من سوء العاقبة بإفراطه وتفريطه.

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

أنكر عليهم كيف يأمنون عقاب الله مع ما هم عليه من إدمان الذنوب، أفأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض فتبتلعهم في بطنها، أو يأتيهم العذاب وهم في غفلة من نوم أو لهو، ومن حيث لا يحتسبون أو يتوقعونه فيعجزون عن دفعه، أو يأتيهم في أسفارهم وهم يتقلبون من بلد إلى بلد في البر أو البحر، فلا يستطيعون دفع العذاب أو التخلص منه، أو يأخذهم وهم في حذر ويقظة فلا تغني عنهم شيئاً، إذ لا يخطئهم العذاب، أو يأخذهم بالتدرج دون أن يشعروا بهذا التنقص يوماً بعد يوم حتى يفاجئوا، فالتغيير الكبير قد يكون نتيجة تراكمية للتغيرات الصغيرة التي لا يشعر بها الإنسان غالباً.

قال الشنقيطي: «أنكر الله جل وعلا على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب»^(٤).

فالآيات وإن كانت عن الكفرة العصاة لكن على المؤمن أن يحذر من سوء العاقبة بإدمان المعاصي والتفريط في الطاعات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/٢٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٧/٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر

والدعاء، ٤/٢٠٩٧، رقم ٢٧٣٩.

(٤) أضواء البيان ٢/٣٨٠.

الثابتة وفروعها المثمرة.

والتغيير في العقائد هو الأساس؛ لانجاح لأي تغيير وإصلاح بدون إصلاح العقيدة، ولقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يربي أصحابه على العقيدة الصحيحة وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق، وركزت السور المكية على إصلاح العقيدة وإصلاح المجتمع من تقاليد الجاهلية وعاداتها السيئة، وإعداد الفرد المسلم وصياغة شخصيته. وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلم أهل يثرب، فما من بيت إلا ودخله الإسلام، فنشأ جيل مبارك شارك في حمل رسالة الإسلام.

وتوحيد الله تعالى ومعرفة هو النور الذي يمحو كل ظلمة والحق الذي يفند كل شبهة، والحقيقة التي تبعد الأوهام والأساطير والخرافات التي تستبد بكثير من الناس وتستهوهم وتطاردهم، فتتكبد عيشتهم وتكدر صفوهم، أما عقيدة التوحيد فإنها تجمع القلوب وتشرح الصدور، وتؤلف النفوس وتثير العقول وتشحذ الهمم وتسمو بالأرواح وتنهض بالمجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١١﴾

مجالات التغيير

مجالات التغيير شاملة وميادينه متشعبة، فالتغيير منظومة متكاملة وعلاج شامل، لن يحقق الثمرة المرجوة ما لم يجمع بين التغيير في العقائد والأفكار والتغيير في الأخلاق والسلوك، كما سنبين في هذا المبحث:

أولاً: التغيير في العقائد:

جاءت دعوات الأنبياء بالتغيير ولا شك أن أول خطواته وأركانه إصلاح العقيدة، والتطهر من أدران الشرك والتحرر من الخرافات والأوهام، فبدأ كل نبي دعوته إلى التوحيد.

قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

كان النبي صلى الله عليه وسلم في بدء دعوته يطوف بالأسواق ويذهب إلى منازل الحجيج يدعوهم لقول لا إله إلا الله.

عن ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهلياً أسلم، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز، يقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا)^(١).

فكلمة التوحيد هي الكلمة الطيبة التي ينبثق منها كل خير، هي النبتة الطيبة بأصولها

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٤ / ٢٥.

[الطلاق: ١٠-١١].

وقال قتادة: ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سييء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عز وجل عنه^(١).

ثالثاً: التغيير في المعاملات:

جاء القرآن الكريم بإصلاح المعاملات فدعا إلى حسن المعاملة والوفاء بالحقوق، وفي مقدمتها بر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة الزوجية، والإحسان إلى الجار والصاحب، وشرع كل معاملة حسنة، ونهى عن كل معاملة سيئة، فأحل البيع وحرم الربا، ونهى عن أكل أموال اليتامى ظلماً، ودعا لحسن التعامل والصبر على مخالطة الناس، وتحمل أذاهم والعفو والإحسان.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيَةً وَلَا تُنهرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٣٤﴾ وَتُكْرَهُ أَكْثَرُ يَمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَٰئِكَ عَفْوَراً ﴿٣٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِراً ﴿٣٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٧].

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الجهل والأوهام إلى نور العلم، من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين. فأبي تغيير أعظم من التغيير في العقائد فهو منبع كل تغيير.

ثانياً: التغيير في الأخلاق:

جاء القرآن بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وتقويم السلوك؛ فاشتمل القرآن الكريم على جميع محاسن الأخلاق يدعو إليها ويرغب فيها، ونهى القرآن عن جميع مساوئ الأخلاق ونفر منها، وجعل لنا في حياة الأنبياء والصالحين المثل العليا لمكارم الأخلاق؛ فما من خلق كريم إلا وفي قصص القرآن نموذج يحتذى منه، وما من خلق رديء إلا وفي قصص الغابرين مثال له حتى ننفر منه ونحذره.

بل وجاء القرآن بآيات جامعة لمكارم الأخلاق من ذلك أجمع آية في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن لخير وشر آية في النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب ٤٠٧٣/٦.

نوفيهما حقوقهما، كما دعا إلى مراعاة حق القرابة والجوار، وحق الضعيف وحق الخادم وملك اليمين وحق اليتيم والمسكين وابن السبيل، ونهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونهى عن الربا وأكل مال اليتيم وأكل أموال الناس بالباطل، وجاء الإسلام بالتشريعات التي تحفظ الحقوق وتصون الكرامات.

ولعل من أصدق التعبيرات عن مجيء الإسلام بالتغيير لما كان عليه العرب من الواقع المرير الذي أثقل كاهل المجتمعات قبل بزوغ فجر الإسلام، وكيف كان منهج التغيير: مقالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين يدي النجاشي ملك الحبشة؛ وذلك حينما هاجر المسلمون الأوائل إلى حمى ذلك الملك العادل؛ فرآوا بدينهم، فأبى الظالمون إلا متابعتهم ورصدتهم فأرسلوا في طلبهم، فكان ذلك الحوار الذي دار بين يدي النجاشي.

وفيه: (فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا

وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ وَالْأَوْلَادِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِآلِهِمْ بِشَيْءٍ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنِتَلُوا وَلَا يَأْتِيَنَّكُمْ أَمْثَلُ ذَلِكَ لِقَوْمٍ كَذَبُوا أَفْوَاحًا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَمِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ لَكُمْ تَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ النَّاسِ أَوْفُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْأَوْلَادِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِآلِهِمْ وَالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

فاشتمل القرآن المكي وكذلك المدني على هذه الفضائل في المعاملات، التوحيد الذي هو أساس الشريعة والأخلاق، والدعوة إلى بر الوالدين، فهم السبب في وجودنا، ومهما بذلنا من إحسان، فلن

ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً^(١).
وهذا ربي بن عامر رضي الله عنه لما سأله رستم قائد الفرس: فقال ما جاء بكم؟ قال: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لنُدعُوهم إليه»^(٢).

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه، فدعانا إلى الله لتوحدنا ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت أم سلمة: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقراه علي، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم ﴿كَمِيعَصَ ۝١﴾ الآيات... قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٠١/١، رقم ١٦٤٩، عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٤٠١/٢، البداية والنهاية، ابن كثير ٣٩/٧.

ثمرات التغيير وآثاره

للتغيير الإيجابي ثمراته المباركة، وللتغيير السلبي آثاره السلبية على الفرد والمجتمع، كما سنبين في هذا المبحث:

أولاً: ثمرة التغيير الممدوح:

من أعظم ثمرات التغيير: التمكين للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

والتمكين تحول في مسار الأمة من ضعف وفرقة إلى قوة ومنعة وعزة، فللتمكين مقدماته ومؤهلته، والتي من أهمها الإيمان والعمل الصالح، وله عوامل تحفظه، وهو القيام بواجبات العبودية لله والإصلاح. وللتغيير ثمراته الطيبة فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح، وبه تلمس البركات. وهو متاح لكل من شرع فيه وأخذ بأسبابه مهما كان من فساد حاله وضلاله قبل التغيير.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَخِيمًا وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّيْمِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْنَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَصْعَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

وقال عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنُهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

وقال عن سائر المكذبين: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالتغيير متاح أمام جميع المخالفين، مهما سلف منهم، ومهما أوغلوا في طريق الضلال، فالفرصة لا تزال سانحة أن يغيروا من أحوالهم، بدءًا من إصلاح العقيدة بالإيمان إلى إصلاح السلوك بالتقوى، والتوبة الصادقة والاستجابة للمواعظ ففي ذلك خير الدنيا والآخرة وتحصيل بركات الدنيا وثواب الآخرة.

ثانياً: آثار التغيير المذموم:

ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

ومن آثار التغيير المذموم:

١. ضيق العيش في الدنيا والعمى في الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ آتَبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

فالإعراض عن منهج الله من أسباب الشقاء والنكد والضيق وتبدل الحال.

٢. الغشاوة على القلوب.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ١٤].

فمن أسباب التغيير إلى الأسوأ، غشاوة القلوب بإدمان الذنوب والمعاصي مما يحجب عنه نور الهداية.

٣. هلاك الأمم وخراب الديار.

قال تعالى عن الأمم الهالكة بذنوبها: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فتراكم الذنوب من أسباب الهلاك والدمار الذي يحل بالأمم المكذبة، فيتبدل حالها من خفض عيش ورجد وأمن إلى

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين هداة ومصالحين، فاستجاب لهم الصادقون وكفر وأعرض الجاحدون المنكرون، فابتلاهم الله تعالى بالشدائد والمحن لعلهم يرجعون ويتضرعون، لكن القلوب قاسية والأعين متحجرة، والعقول في غفلة وذهول، وهنا يتلهم الله بالنعم والرخاء؛ استدراجاً لهم، فيزدادون بطراً وعجباً وغفلةً، ويمهلهم فيتمادون في الغي والطغيان، فتحل عليهم النقم ويغشاهم العذاب الذي لا كاشف له ولا عاصم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤١﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤١-٤٣].

هلاكٍ وخرابٍ وتدمير، فلا تبقى لهم باقية.
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه،
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
(إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن
على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً:
(كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع
القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود،
والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً،
فأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها).

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التدرج، التريية، الدعوة

